

ماركـــــــيز

الجزء السَّابع

الدكتور مزوار محمد سعيد

يومٌ مشمسٌ جميل، يقودُ ماركيز سيارته الفرنسية عبر منعرجات كثيرة قاصدا احدى الغابات لعلَّه يحظى ببعض الهدوء، رغم أنَّه يعلم مسبقا بأنَّ كلمة هدوء على أرض القراصنة حلمٌ يقترب مِن الوهم، أكثر مِن اقترابه مِن أيِّ شيء آخر، ومع ذلك نجد الأستاذ ماركيز – هذا الفيلسوف الهادئ طبعا وتطبعا – دائم الركض خلف ما يسمونها جزافا بالهدوء.

كلمات "جون لوك" السريعة تنبعث من المذياع، السيجارة في فمه كالعادة، الأستاذ ماركيز يبتسم لكل ما تقع عليه عيناه، سواء كانت أشجارا، طيورا أو حتى زواحف، يسير لمدَّة ليست بالطويلة، قبل أن يتوقف بشكل متباطئ، ثمَّ يعيد ركن السيارة بالقرب من احدى الغابات الكثيفة والمليئة بأشجار الصنوبر الطويلة، ذات الأوراق الخضراء المنتشرة كانتشار الجراد في مواسمه المعروفة؛ وَكعادة معظم سكان المنطقة، فإنَّ ماركيز يقصد الغابات لأنَّها احدى الملاجئ التي يلجأ إليها العشاق والسكارى، فهي تعتبر على أراضي القراصنة فنادق في الهواء الطلق، الكل يزورها لغرض ما في نفسه، وهذا الغرض طبعا ليس التمتع بالمناظر الطبيعية التي يعمل القرصان بأقصى ما يملك من مجهودات لتحطيمها.

اتخذ الأستاذ ماركيز مكانا له بالقرب من سيارته الفرنسية التي ركنها تحت احدى أشجار البلوط العملاقة، وبعدما أنزل منها أغراضه، جلس فوق كرسيٍّ صغير مخصص لهذه الجولات، قبل أن يشرع في احتساء الويسكي وقراءة كتاب "فن اللامبالاة" للكاتب الأميركي مارك مانسون، المكان كان خاليا من الضوضاء إلى حد بعيد، لأنَّ بعض أصوات الضحكات لبعض الشباب كانت تخترق ذلك الصمت بين الحين والآخر.

مِن العادات السيئة التي لم يتمكن ماركيز من التخلي عنها هي عادة شرب الويسكي أثناء نزهاته بلا ثلج، يشربه دون خلطه بأيِّ سائل آخر، مما يجعله يؤذي بعض أطراف بدنه، فينشغل برهة من الزمن بالتأقلم مع تلك الآلام الناتجة عن تهور دفين في داخله، نتيجة تخبط ذلك الوحش الذي لم يتحرر من روحه بعد.

أخذ الويسكي يأخذ مِن الأستاذ ماركيز مأخذه، قبل أن تظهر أمامه فتاة بدت له كشبح خرج من الغابة، قامت بتحيته قبل أن تطلب منه سيجارة قائلة: أهلا أستاذ، عذرا عن التطفل كما أعتذر عن وقاحتي مسبقا، أنا فقط أرغب بسيجارة لو سمحت، لأنني أعلم بأنك مدخن منذ زمن بعيد.

دون حتى أن ينطق وجد نفسه يعطيها السيجارة بحركة آلية، قبل أن يساعدها في اشعالها؛ أخذت الفتاة نَفَسًا عميقا من تلك السيجارة، نظرت إلى الفراغ، قبل أن تتابع كلامها: لم أعلم يا أستاذ أنَّك تشرب الويسكي أيضا، منذ دراستي في قسمك كنت أرى كغيري من التلاميذ تلك السيجارة التي لا تفارقك إلاَّ نادرا، لكنني اليوم اكتشفتُ عادة جديدة لديْك، أنت تشرب هذا السائل الذي يجعل العقول تتعطل، فكيف تكتب تلك الكلمات المعقولة جدا التي لا يستطيع كتابتها حتى أبرز العقلاء من القراصنة وأنت غائب عن الوعي معظم الوقت، دعنا من رائحة الكحول، فهذا يفسر سر اقتنائك للعطور الأوربية الفاخرة – قبل أن تتبع كلماتها بضحكة قوية – لم يجد أمامها ماركيز مهربا سوى الإجابة عن هذه التساؤلات.

يا ابنتي! لا علاقة للأفكار بحالة الإنسان، والدليل أنَّ معظم العباقرة في التاريخ عاشوا في أوضاع قاسية للغاية، وبعض هؤلاء الذين غيَّرت أفكارهم حياتنا اليوم، كانوا مدمني كحول أيضا، ألم ينزل ريني ديكارت التفكير من السماء إلى الأرض عبر الكوجيتو وهو في حالة بين اليقظة واليقين؟

عجبا! ليس غريبا أن تكون أحدهم لا أستاذ؛ فأنت لا تزال تتحدث رغم أنَّ زجاجة الويسكي قد نزل منسوب محتواها تحت النصف – رمت عقب السيجارة جانبا – ودَّعته قبل أن تتجه نحو عمق الغابة، بينما بقي ماركيز محدقا في الفراغ وكأنَّه جزء من المكان، شجرة، حجرة أو حيوان بريّ لا يعرف مِن أين أتى ولا إلى أين هو متجه.

ينتقل الأستاذ ماركيز بوجوده الروحي نحو الصلاة، هو ليس متدينا بالشكل المعروف للقراصنة عبر العصور، أين يصبح المنافق أبلغ صورة عن التديُّن المغلوط، لكن لسبب خفيّ، يعتبر ماركيز علاقته بالله علاقة مقدسة، فردية ولا يمكن لأيٍّ كان التَّدخل فيها أو الوقوف عندها، هي مساحته الخاصة الأكثر سريَّة على الإطلاق أين تلتقي كافة خطوطه الحمراء، الزرقاء وبقية الخطوط بكافة الألوان.

قاد ماركيز سيارته الفرنسية التي صارت بمثابة منزل متحرك بالنسبة إليه نحو شاطئ البحر الأبيض، هو أحد أيَّام فصل الصيف الحار للغاية في هذه المنطقة من العالَم، اليوم

درجة الحرارة قد تتجاوز الأربعين درجة، وهذا ما جعل ماركيز يقصد الشاطئ الأقرب إلى قلبه، شاطئ "مرسى بن مهيدي"، هو شاطئ جميل جمالا طبيعيا، ينبسط بالقرب من فوهة مدينة صغيرة توقف فيها الزمن على ساعة القرن الرابع عشر، أين ضاع أبناؤها بين العادات البالية والحياة المدنية المعاصرة.

بمجرَّد وصول ماركيز إلى تلك المدينة الصغيرة حتى أنزل أغراضه كما هي عادته دائما متخذا احدى أشجار الشاطئ بيتا جديدا له، طبعا دون نسيانه أن ينزل أهم مقتنياته ألا وهي قارورة الويسكي الفاخر التي يقتنيها خصيصا لهذه المناسبات، وعلبة سجائره التي لا تفارقه، بالإضافة إلى كتاب روني ديكارت "مقالة في المنهج" الذي يعيد قراءته باللسان الإنجليزي هذه المرَّة، يجد الأستاذ ماركيز متعة لا نظير لها عندما يقرأ أفكار الفرنسيس باللسان الإنجليزي، وهو يجهل مصدر هذه المتعة التي لا يفهمها وإنما يكتفي بالاستمتاع بها دون تمحص كافٍ.

بعد مرور مدَّةٍ مِن الزمن، اقترب من ماركيز مجموعة من الفتيات المراهقات، لم يعرنه أيَّ انتباه وكأنما يعرفنه منذ زمن بعيد أو كأنهن لم يعتبرنه بشرا أصلا، وبسرعة قمن بشغل حيز لهن على الرمال الساخنة للغاية، وضعن شمسية تم غرسها بشكل متقن، تتوسط طاولة زرقاء – وهذا ما أثار انتباه ماركيز – قبل أن يتجمعن حول تلك الطاولة على كراسي زرقاء أيضا.

احداهنَّ شرعت في تصفح النت عبر هاتفها الجوّال، اتخذ ماركيز موقعا مناسبا لمراقبتهنَّ، ليس للتحرُّش بهنّ، فهو يعتبر على غير عادة شباب القراصنة أفعال وأقوال التحرش إهانة لأصحابها قبل أن تكون إهانة للفتيات في حدِّ ذاتها، لكنه عزم على مراقبتهن حتى يتمكَّن من احتساء تلك الكأس من الويسكي أو هذهالجرعة بين الفينة والأخرى، عليه أن يحسب تحركاته بعناية حتى لا يكتشفن قيامه بشرب الويسكي على الشاطئ، لأنهن سيقدمن على فضحه فضيحة ثلاثية الأبعاد، وفي الوقت ذاته لا يستطيع الأستاذ ماركيز قراءة الفيلسوف الفرنسي بالإنجليزية والتمتع بجلسته على الشاطئ دون مشروبه المفضل، الفتاة الثانية راحت تقوم بطلاء كافة جسدها بمادة تشبه الزيت أو الكريما، أمَّا الثالثة فراحت ترمقه بنظرات بين الحين والآخر وهي تضع المأكولات على تلك الطاولة بعناية، بينما الرابعة وهي امرأة متقدمة في السن، تلبس لباس البحر ذا القطعتيْن، لم تنتبه لوجوده من الأساس، منذ وصولها وهي تراقب الأمواج وكأنَّ هموم "الجنة ما وراء البحر" كلها فوق كاهلها.

انزعج ماركيز من هذه الرفقة التي لم يتوقعها، فقد تعمَّد الانزواء بمفرده في أحد أطراف الشاطئ، وها هو الآن يحاول الخروج من هذه الورطة بحذر الثعلب، لقد فقد الويسكي مذاقه اللذيذ فجأة عندما وجد ماركيز نفسه يشربه كالسارق، قبل أن تخطر بباله فكرة أن يحفر حفرة في الرمال، ويضع القارورة بداخلها قبل أن يدفنها، ويستعمل أنبوبا رقيقا للغاية لسحب المشروب من عمق الزجاجة.

فعلا اقتنع ماركيز بالفكرة، تظاهر بأخذه حماما شمسيا قرب تلك الشجرة، وراح يحفر الحفرة ببطء شديد، وبعدها حمل الزجاجة ملفوفة بإحدى منشفاته، قبل أن يضعها في مكانها ويقوم بتغطيتها بتلك الرمال، لكن بمجرَّد أن راح يتدفق الويسكي الساخن في فمه، حتى شاهد احدى تلك الفتيات تضع هاتفها في حقيبة يد كانت موضوعة على الطاولة، ركضت باتجاه البحر، فراح ماركيز يراقبها من بعيد، قفزت بين الأمواج، سبحت لفترة قصيرة، قبل أن تتجه عائدة نحو كرسيها، تناولت منشفة كانت موضوعة عليه، قامت بلفها حول كامل جسدها، وها هي تتوجه نحو ماركيز بدل أن تجلس في مكانها.

ارتبك ماركيز وبسرعة وضع كتابه فوق مكان الزجاجة المدفونة في الرمال، قبل أن يجد الفتاة واقفة بقربه تحييه قائلة: "الجو حار للغاية اليوم، أليس كذلك؟".

- نعم! رد بارتباك واضح، لكن البحر هادئ، وهذا ما يجعل الأمر ممتع.
- فعلا الأمر ممتع، لكنه يصبح أكثر متعة بشرب بعض الرمال يا سي خيسوس!
- شرب الرمال!
- هل تعتقد أنني غبية لهذا الحد، أنا ابنة المدينة وأعرف هذه الأمور، هيا ناولني القليل مما تشربه.

شعر ماركيز بغبائه وهو يقدِّم لها رأس الأنبوب! ثمَّ سأل نفسه: أين يمكنني أن أهرب من نساء القراصنة بأسراري؟

هو موسِم الأعراس على أرض القراصنة، الموسم الأكثر إرهاقا للأستاذ ماركيز، هو لا يميل للاستمتاع بهذا الموسم الذي تكثر فيه الطفيليات والحكايات الاجتماعية التي تسرد بإتقان معارك العائلات وفضائحهم، لكن هذه المرَّة الأمر اختلف قليلا، لأنَّ ماركيز ينتظر حفل زفاف "صديق" قديم له، إنَّه رودريغو، ذلك الضائع بين أمواج العناد وزلازل الفقر.

سار ماركيز راجلاً لوهلة مِن الزَّمن نحو منطقة مليئة بأشجار الزيتون على حواف القرية التي يسكنها، بين شفتيْه السيجارة التي صارت علامته المسجلة بين الذين لا

يعرفونه قبل الذين يعرفونه، وفي عقله يدور سؤال واحد: كيف سيتصرف رودريغو؟ كيف سيسير بحفل زفافه نحو برِّ الأمان؟

رودريغو شابٌ ولِد فقيرا على غرار معظم أبناء القراصنة، هنا الفقر بمعناه الأشمل، فهو صبي لأحد الآباء من أشباه بني البشر، لا يعرف طعم المسؤولية أبدا، ترعرع بين عائلة كبيرة تحاول خنق طموحاته كل يوم وبكافة الوسائل، هو أخ أكبر لأخت ضرب الجهل أطنابه بين روحها لحد السيطرة الكاملة على تصرفاتها وما لها من أفكار أيضا، بينما الأم لعبت دور الوسيط والرفيق الذي لا سبيل للتخلص منه على درب الآلام هذا، لتنتج لنا كتلة من الغضب، العبودية، العنصرية، العناد والفقر بكافة المعاني، تلك الكتلة هي رودريغو ببساطة.

وقف ماركيز تحت احدى أشجار الزيتون يشاهد عشا لأحد الطيور، وكم تمنى لو كان طائرا، يبني عشه بإتقان، وهو ليس مضطرا لإقامة حفل زفاف، بل يكتفي بتأدية رقصة أمام أنثاه، وبموجب الرقص يصبح زوجا، كم الحياة أبسط في عالَم الطيور، عالَم الحرية والانطلاق نحو الآفاق.

في تجمُّعٍ كتجمُّع القراصنة، أين يتكلَّم الدينار/الدولار بكافة اللغات، فإنَّ إقامة عرس – حفل زفاف – ليس استثناء عن هذه القاعدة الجوهرية، فالثريّ يشتري سكوت كل مَن هُم حوله، ويفرض عاداته وتقاليده الشخصية التي هي في الأصل آراءه على الجميع، فيمر حفل زفافه بلطف منقطع النظير؛ بينما على الضفة الأخرى، إن كنتَ كالأستاذ ماركيز أو الأخ الفاضل رودريغو، أحد فقراء القوم، فإنَّ حفل زفافك سيشهد كافة العراقيل لأنَّ كلَّ قرصان سيدلو بدلوه في المسألة، ولن تجدِ كلمات العريس حتى ولو كان سليط اللسان في تنظيم مجريات الحفل، لأنَّ اللغة الكابحة هنا ليست الكلمات بل الدنانير/الدولارات، والباقي مجرَّد تفاصيل لا مجال لسردها أبدا.

على أرض القراصنة الفتاة تباع وتشترى بصيغ كثيرة، أبرزها كلمة الله ورسول الله، عبارة: أنا أخطب ابنتك على سنة الله ورسوله على أرض القراصنة معناها الخفيّ هو: أنا أرغب بشراء ابنتك بمظلة الدين، والدليل أنَّ عائلة العروس تبدأ بطرح أسئلة حول العريس تثبت هذه النظرة الدونية المقيتة باتجاه بناتهم.

أوَّل ما يُسأل عنه العريس – الافتراضي هو مصدر دخله، حتى يتم تحديد ثروته تقريبا، بعدها يسألونه عن ممتلكاته من عقارات، سيارات، متاجر... وغيرها، وعندما ينجح في هذه الخطوة الأولية، تتوجه الأسئلة نحو سعر الشاة – عفوا الفتاة – والذي يطلقون عليه

كذبا بالمهر، فيتم حديد السعر من جانب واحد، ألا وهو عائلة العروس، وفي غالب الأوقات تتمدد الأمور نحو تحديد وزن الذهب الذي يجب على العريس اقتناؤه للعروس كشرط أساسي لزواجه.

إن ما نجح العريس في كافة هذه الاختبارات، ينتقل إلى مرحلة أخرى، ألا وهي أقدس مرحلة على الإطلاق، هي مرحلة إقامة حفل الزفاف، وعلى الرغم من أنَّه لا توجد شريعة أو قانون يفرض إقامة حفل للزفاف، إلاَّ أنَّ القراصنة يعتبرونه هو الزفاف في حد ذاته، وهي وليمة ترهق كاهل العريس بالأساس، فهي شبيهة بإقامة مهرجان، يدعى إليها الجميع، بل تدعى إليها المدينة بأكملها، فيأكلون ويشربون ويسهرون، ثمَّ يشعلون نيران الفتن في بيت الزوجية الجديد، قبل أن يتركوا العريس يعدُّ أرقام الفواتير التي عليه تسديدها لبقية أيام حياته.

هذا باختصار ما وقع فيه رودريغو، وبسبب كل هذا وجد الأستاذ ماركيز نفسه مشفقا على زميله في البؤس والشقاء، لأنَّه يعلم علم اليقينيات بأنَّه سيعبر على الجسر ذاته، وسيمشي على الدرب عينه، درب الآلام.

بينما كان الأستاذ ماركيز جالسا يشاهد أحد البرامج الوثائقية عن الجفاف الذي أصاب مناطق واسعة مِن العالَم بسبب جشع الإنسان وعدم مبالاته بالطبيعة التي تُعتبَر الوطن الأكبر لكل البشر، خطرت بباله مِن وحي فكرة الجفاف، جفاف الأرواح، أشعل سيجارة وراح يتساءل: كيف يصبح الإنسانُ جافا روحيا؟

يولدُ الإنسانُ وهو في قمَّة الحماس، خلال سنواته الأولى تكون مشاعره وعواطفه هي التي تسير به أينما أرادت، لهذا نشاهد الرضيع ومِن بعده الطفل يقوم بحركات خاضعة لانفعالات بشكل خالص، تراه يبكي بشكل مستمر عندما يحتاج إلى شيء ما، أو يقع تحت طائلة ظروف غير متوقعة أو غير مألوفة لديْه.

بعدها يسير الإنسان نحو نوع من التحكم بما يتدفق بداخله من مشاعر وأحاسيس، فتراه يسلِّطُ عليها العمليات المنطقية والعقلية لأجل الوصول إلى نحو مِن فرض سيطرته على هذه الأمواج الروحية العالية التي لابد من التحكم بها قبل أن تقوم بجرف كلِّ الوقائع المتناثرة أمامها.

عند دخول العقل على الخط، يبدأ صراع العقل والقلب في جوف الفرد، فيسير الإنسانُ عبر هذه العملية نحو اتخاذ القرار الحاسم في حياته: إلى أين يميل وكيف سيسيِّر حياته – أو ما تبقى منها إن جاز لنا ذلك – هل وفق القلب – المشاعر أو العقل – المنطق؟

بهذه الطريقة يحاول الفرد الإنساني أن يقوم بنوع مِن محاولة التوفيق بين الجانبيْن، لكنَّ إنسانيته أحيانا وفي غفلة منه ترغمه على الوصول إلى أحد الحلَّيْن دون الخضوع لذلك التطابق بين الصورة الذهنية الخاصة وما يحيط بها من حيثيات المعيش العامة، وبذلك يقع الفرد في المحظور – أو كما يبدو له ذلك، فتجده يقترف الأخطاء، وفي معظم الأوقات، لا يعترف بها أصلا، فنجده يحاول تبرير ما هو غير خاضع للتبرير – فهو واضح وضوح شمس أحد أيام أغسطس وقت الظهيرة.

"أن يسير الفرد حسب ما يراه" ليس أمرا يثير الاشمئزاز، ولا هو من الممنوعات أو المحرمات، بل إنَّه الأصل الذي يتطابق مع الطبيعة البشرية مِن جهة وما هو قادر على التعريف بالكيان الإنساني كجوهر يحرِّك باقي أجزاء الحياة مِن جهة مخالفة، لكنَّ المادَّة والبيولوجيا، التقاليد المثقوبة والعادات البالية، التديُّن المغلوط والمنافق، الطمع الذي يختفي خلف الطموح، كلها عوامل تجعل الإنسان خاضعا للطبيعة وأذرعها مهما كان مصمما على التحدي.

أطفأ ماركيز جهاز التلفزيون، وراح يدخن بينما هو مستغرق في تفكير عميق: بما أنَّ الإنسان بحدِّ ذاته كتلة انفعالية أقوى عند انفجارها بكثير بالمقارنة بالقنبلة التي انفجرت في رقان – الجزائرية، فلما يسقط بين الحين والآخر في حفر الضياع وسيطرة الجفاف الروحي على باقي مكوناته العاطفية؟ كيف للإنسان أن يستطيع خنق كرامته، ويقبل على إيذاء المحيطين به تحت مظلة الذرائع المختلفة؟ إنها الرغبة في التميُّز والتشبث بوهم التفوّق، هذا المبدأ الذي يحاول كلُّ أميركي الاستمتاع بتصديره لكلِّ الشعوب التي لا تتحدث الإنجليزية وبخاصة الشعوب التي تقطن الشرق، إذْ أنَّ هناك نوع من البشر – وهُم يمثلون الأغلبية – منذ نهاية القرن العشرين في عالَمنا، يحاول بكل ما يملكه من وسائل إبراز نفسه في موقع المثير للانتباه، وقد انعكست هذه الرغبة على أشرس عملية دعائية/نفسية موجهة ضد العقل البشري عبر التاريخ، تلك التي سخَّرت كافة مصادر المعلومات خدمة لهدف واحد، ألا وهو إفقاد العقول معانيها، وحصرها في تفاهات لأجل إلهائها عن وظائفها السامية.

"أليس فيكم رجُلٌ رشيد!" هذه العبارة هي التي رأى فيها ماركيز تلخيصا لمبررات ظهور الجفاف العاطفي، وقد فكَّر فيها بعمق أيضا، بينما هو متجه نحو غرفته، هو تعميق للمأساة التي يعيش فيها الفرد مهما كان انتماؤه، لقد نجحت الأقلية الساحقة في اقتياد الأغلبية المسحوقة نحو انهيارها، فالعدو الأساسي للفرد اليوم ليس خارجيا ولا داخليا، بل هو الفرد عينه.

هو يومُ استلام الأستاذ ماركيز لراتبه الشَّهري، إنَّ أرض القراصنة هي الأرض الوحيدة في العالَم عبر العصور التي تعمل على إذلال العلماء، الأدباء، الشعراء وبالخصوص المعلمين مِن أبنائها المخلصين، لا لشيءٍ سوى إرضاء لنقطة ضعف غريزيٍّ، متغلغلة في عمق كلِّ قرصان، تجعله على دين غوبلز: كلَّما سمعتُ كلمة مثقف، تحسستُ مسدسي.

عاد ماركيز إلى سيارته الفرنسية وهو خاضع لِمشاعر متناقضة، هي بين الفرح والألم، فرحٌ بامتلاء جيبه مؤقتا، وألم بسبب علمه المسبق بأنَّ ما تقاضاه لن يكفيه لتسديد حتى أثمان المشروبات الروحية والسجائر التي يقبل عليها بنهم، يدير المحرِّك، ثمَّ ينطلق نحو منزل يشبه الكنيسة المهجورة، يشغل جدرانه البائسة أحد القراصنة، محوِّلاً تلك البناية إلى ما يشبه متجر كحوليات، أين يقتني منها الأستاذ ماركيز ما يشتهي من الويسكي الفاخر الذي يحبُّ احتساءه أثناء خلواته الكثيرة في فصل الصيف.

القرصان بالطبيعة والغريزة ظالِمٌ لنفسه قبل أن يكون مستمتعًا بظلمه لمَن يستطيع إليهم سبيلا، وبالتالي حتى الأستاذ ماركيز يقع في هذه الدائرة التي أحكِمَ إغلاقها منذ زمنٍ بعيد، لهذا تجده أحيانا يتوقف تاركا كلَّ مشاغله التي لا تنتهي، ليجلس مفكِّرًا في سبيل للهروب مِن ضربات تلك المطرقة التي أجاد الرومان صناعتها، واجتهد الفرنسيون مسخرين كلَّ ما يملكون مِن وسائل حتى يبقون عليها تعمل دون توقف، فهي التي تجعل القرصان عبْدًا ذليلا على أرضه، يتطلَّع للأفق ثمَّ يعمد إلى خنق كافة طموحاته وتطلُّعاته عند أوَّل امتحان جدِّي له أمام تلك المطرقة المقدَّسة.

بعد شرائه لكلِّ ما يجعله يَحْلُمُ بشراهة مِن سجائر وويسكي، قصد الأستاذ ماركيز حديقة عامة، لينزوي تحت احدى الأشجار الكبيرة ويجلس على أحد المقاعد القديمة، أشعل سيجارة كعادته وراح يتأمَّل مَن هُم حوله، جماعة مِن القراصنة الصغار يلعبون بين الأوساخ المتناثرة هنا وهناك، بعضهم يقفز وسط مساحة صغيرة مغطاة بالرمل الممزوج بفضلات البشر، هناك ما يشبه العائلات يجلسون على عشب تمت سقايته ببول القراصنة

على اختلاف أعمارهم، التفت خلفه فشاهد بعض الأشجار التي كُسرت أغصانها القريبة من الأرض، يحاول بعض المراهقين مِن صبيان وصبايا عبثا الاختباء خلفها ليحضوا ببعض الأوقات الرومانسية – أو ما يشبهها – معًا، قبل أن ينظر إلى حاله فيجد نفسه وحيدًا وسط هذا الجمع الغريب عنه رغم أنَّه لم يفارقه منذ صغره.

في بلاد القراصنة يرى الأستاذ ماركيز بأنَّ المؤسسات لا تحمل مِن عناوينها سوى نفخة الاوهام لا غير، فعلى سبيل المثال: مؤسسة دار العجزة، تجدها تهتم بكل الفئات العمرية مِن السكان إلاَّ العجزة وكبار السِّن، وقياسا على هذا ستجد أنَّ الجامعة مؤسسة تشجع الجهلة على البقاء في جهلهم وتعمل على تحطيم طلاَّب العلوم والآداب على اختلاف مشاربهم، هي طريقة القراصنة في العيش وتأسيس المعيش، وهو أسلوب لطالما صنع كائنات متناقضة حدَّ الهوس والوسواس، إلى درجة الضياع والتضييع.

ماركيز حاول التأقلم مع القراصنة على أرضهم لسنوات، وها هو يصل إلى نقطة أدرك مِن خلالها بأنَّه يضيّعُ حياته مع حفنة مِن التَّائهين، الفاشلين، وَالذين لا يهمُّهم من يومياتهم سوى نشر الحقد والأشواك في كافة الاتجاهات ولدى كلِّ الجهات؛ يقول الحكماء بأنَّ المجتمعات المتخلفة هي مجتمعات غارقة في الجهل، لكنَّ ماركيز ولكيْ يصف القراصنة يضيف إلى ما قاله هؤلاء الحكماء أنفسهم بالقول: القراصنة كائنات مؤذية، دينها الكذب، رعونتها العنف وطموحها نشر الخراب في الأرواح أينما ثُقِفَت.

حمل الأستاذ ماركيز نفسه وراح يخطو خطواته الأولى باتجاه باب تلك "الحديقة العامة"، رمى عقب سيجارته في أحد مكبات القمامة الفارغة منذ الأزل، ركب سيارته الفرنسية، وراح يقودها نحو المجهول وَإلى ضياع تام.

يركضُ ماركيز حافيا على رمال شاطئ "مرسى بن مهيدي" الساخنة، صيفٌ حار للغاية، حتى الأفكار التي تجتاحُ الأستاذ ماركيز ساخنة أيضا، الأمر كله يبعث على التأمُّل، رغم علم الجميع بأنَّ هذه العملية في حد ذاتها لم تعد لها قيمة في عصر صار إلهه الوحيد هو المال ولغات الأرقام.

لم يعد ماركيز مهتما بما يدور حوله، لقد ركَّز كلَّ قواه العقلية، المالية والبدنية على ما هو آتٍ، الأمر يجري وفق ما يخطط له، أمَّا البقية ليست مهمة على الإطلاق، هذا ما وصل إليه مِن عملية مركزة جعلته يحاول الوصول إلى أغلى ما يملكه في تلك اللحظة، قارورة الماء التي علقها على أحد أكتافه، فبعد لسعة شمس لفحت جبهته، توقف الأستاذ ماركيز عن الركض، أخذ نَفَسًا عميقا وهو يحدق إلى الأمواج أمامه، الساعة لم تتجاوز

الثامنة صباحا، والساحل فارغ من المصطافين والقراصنة تقريبا، وهذا ما أبهج ماركيز وجعله يعود أدراجه إلى سيارته الفرنسية، حتى يتملك مِن المغادرة.

ليس مِن السهل على ماركيز مفارقة الشاطئ الذي احتضن جنونه لسنوات طويلة منها سنين المراهقة، لكن كان عليه أخذ حمام ساخن، قبل الاتجاه نحو أقرب مقهى، أين جلس لفينة من الزمن، وَأين قام بقراءة جريدته المفضلة "الجمهورية" وهذا ما جعله ينتقل إلى الساحل مرة أخرى، هناك اتخذ لنفسه مكانا تحت مضلة قام باستئجارها من أحد القراصنة، هي والطاولة وبعض الكراسي، مكث يحدق إلى الأمواج ويدخن بكل ما يمكنه إحراقه من روحه وأفكاره.

لقد نما ماركيز كثيرا من الناحية العقلية، لهذا كلَّما قدِّر له وجلس مع أحد أفراد القراصنة إلاَّ واجتاحه نوع من العذاب الممزوج بالأسى، فهو سرعان ما يكتشف الفرق الشاسع بين نمط حياته على الطريقة الغربية وأسلوب حياة القراصنة التي تسيطر عليها الوحشية الخرافية، هذه المقارنة تجعل ماركيز يزداد نفورا ممَّن هُم حوله، ليغمره نوع من الشعور بالذنب كونه يعتبر هذه الحالة الاجتماعية/الثقافية-النفسية نتيجة لما هو يشغله في الوقت الحالي، أستاذ التعليم الابتدائي – مربي الشعب.

مِن الصعب أن تجتاز زمنكَ بمسافات ضوئية عقليا، هو شعور لابد وقد مرَّ من خلال غرباله الكثير عبر العصور، سقراط، الأنبياء على اختلافهم، غاليلي، نيوتن، ابن خلدون عبد الرحمان، أحمد زويل، باسكال، هيزنبورغ، تيسلا نيكولاس.... وغيرهم؛ هي هوَّة تجعل المفكِّر في معاني الحياة والجدوى منها يشعر بالغربة المتواصلة عندما يقع في خانة التوغل في تصرفات السائد العام مِن حوله.

إن لم تتغيَّر ذهنيات القراصنة فلا فائدة من تغيير ألسنتهم، إنَّ هذه العملية الأخيرة لن تزيد سوى في الضياع اللغوي/الشعوري الذي يسجن القرصان على "أرض الجنة ما وراء البحر" طيلة حياته، وهذا ما يجعل بالأساس العملية التفكيرية غريبة عنه، اللغة ليست وسيلة تواصل فقط كما يدعي السذج، بل هي وعاء وجودي يعبِّر عن العمق العاطفي لصاحبه، فالإنسان والقرصان ليس استثناء، هو يعبِّر عن خلجاته، من عواطف، مشاعر وأحاسيس عبر الكلمات، فإن لم تتفق هذه الأخيرة مع ما يدور بداخله، سيصبح كائنا أجوف، وهذا بالذات ما يجعل القرصان كائنا ضعيفا، فهو يفتقر إلى سلطان المعنى بافتقاره إلى الانتماء اللغوي، وافتقاره للانتماء اللساني هو في الأصل بسبب الحرمان من

تبني مرجعيات أصيلة نابعة من الهُوية التاريخية، أين سقط القرصان في ثنائية الوطنية/الخيانة، فتسللت من الظاهرة الاجتماعية لتصبح ظاهرة ثقافية بامتياز.

بعض كُتَّابِ الْقراصنة يكتبون بأكثر من لغة، وهذا حسب ماركيز – بالمناسبة الأستاذ ماركيز واحد من هؤلاء، هو يكتب بثلاث لغات – هو جُبن ومحاولة لإمساك المشكلة من الوسط دون اقتراح حلول عملية لها.

يفكِّر ماركيز كثيرًا في المسار الذي يسلكه القرصان هذه الأيَّام، يدخن كثيرا، يداعب كبرياءه محاولا تأمُّل مسار رُسِم منذ زمن بعيد، لا يعرف أحد مَن رسمه ولماذا تمَّ رسمه، لكنَّ الجميع ودون استثناء قد قام باتباعه وكأنَّه أقدس المقدَّسات، التي لا يجب تجاوزها مهما كان الثَّمن.

مسارٌ يبدأ بالولادة التي تتم في بناية تشبه المستشفى، على يد أحد الأفراد الذين يسمونهم بالقابلات، اللائي يحرسن أجساد الصبيان والصبايا كما يحرس الموج الشواطئ عبر العصور، ثمَّ تتم عملية تسجيل الاسم الخاص بالمولود الجديد في سجلات تسمى بالمدنية لكنها في الأصل هي عبارة عن مادة خام لحشو السجلات العسكرية فيما بعد، وبمرور الأيَّام يكبر الطفل جسميا فيتمكن من المشي والجري، يعاني من دورات التلقيح الذي لا يفهم معناه سوى أنَّه أمر مليح، قبل أن يتم إرساله إلى البقال أين يتعلَّم دفع أثمان المواد الاستهلاكية مهما كان نوعها أو حجمها، حتى ولو كانت قطعا صغيرة من الحلوى، يتعلَّم الجلوس إلى جماعات أفرادها في مثل سنه وتجنب الجماعات التي أفرادها أكبر منه سنا، لأنها ببساطة "جماعة الكبار"، فالكبار على هذه الأرض يفعلون ما يحلوا لهم، لا يكذبون وإن كذبوا، ولا يخطئون وإن ارتكبوا الخطايا والأخطاء، وما على الصغار سوى السمع والطاعة وتقبل ما يصدر عن الكبار دون نقاش أو طرح للأسئلة، مهما كان السؤال تافها فهو ممنوع من الطرح والإفصاح عنه أمام المخملية هذه.

بعدها يدخل الطفل المدرسة، هذه البناية التي يوجد فيها المعلمون والمعلمات، المدير الذي يُعتبر كبير الكهنة والموظفون الذين يؤدون واجباتهم بشكل يبدو مثاليا للوهلة الأولى، مجتمع جديد يعد بمستقبل مزدهر حتى وإن لم يفهم هذا الطفل ما معنى كلمة مستقبل فضلا عن كلمة مزدهر، ويحرس المدرسة حارس يلوِّح بعصا طويلة تمكنه من إنزال العقاب بمختلف الأطفال مهما كان سنهم، وهناك يتعلَّم الطفل الذي يصبح تلميذا كيف يسكت تماما في حضرة المعلِّم، المدير وكلُّ موظف ينتمي إلى ذلك المعبد، فأوَّل الدروس وآخرها التي يتعلمها التلميذ هو الطاعة، طاعة الكبار بشكل أعمى.

يتدرَّج التلميذ بمرور الزمن بين المستويات التعليمية، ويكبر معه حسه الأساسي الذي يجعل منه من زمرة العبيد، فالطاعة هي الشرط الذي يجعله يفوز بالدرجات العالية أو المتوسطة ليخترق الأقسام التعليمية على اختلافها، حتى يصل إلى الجامعة أين عليه أن يحوِّل تلك الطاعة التي صارت في ثوب الخنوع إلى رهاب بعباءة خوف شديد يسكنه، قبل أن يجد مستقرا في احدى الثكنات، أين عليه أن يؤدي واجبه العبودي بشكل متمرِّس ودون نقاش.

بعد نجاح "المواطع" الذي يسمى على بطاقات التعريف والوثائق الرسمية بالمواطن في اجتياز اختبارات الخضوع للكاسكيطة – السلطة العسكرية، ينتقل إلى الاختبار التالي، ألا وهو تشكيل "عائلة" بعدما يكون قد نقل الطاعة من العسكرية إلى الحالة المدنية أين صار موظفا في احدى المؤسسات العمومية، وبهذا تتمُّ دورة الحياة لهذا الكائن الذي نسميه مجازا بالقرصان على "أرض الجنة ما وراء البحر"، إذ عليه أن يتزوج وينجب طفلا مطيعا قبل أن يولد أصلا، بل قبل أن يتعرف على أمه قَبْلاً.

هذا المسار يحاول ماركيز بكلِّ ما له مِن قوى عقلية، وجدانية وبدنية التمرد عليه، لقد ولد ماركيز حرا، وهنا مفهوم الحرية لا يتعدى طرح الأسئلة حول ما يبدو بديهيا لهؤلاء القوم، قبل أن يتمادى في تمرده فيحاول الإجابة عن تلك الأسئلة الممنوعة من النشر والتداول علنا؛ يعلم الأستاذ ماركيز مدى خطورة الموقف، ويعلم حساسية ما هو مقبل عليه، لهذا هو يعتبر نفسه كاميكاز على أرض لم تعترف بالأحرار يوما، بل حاربتهم بكل ما تمتلك مِن عتاد بروبغندي وعدَّة ترهيبية.

تُبنى العلاقات البشرية على الإنسانية، تُنسَجُ هذه العلاقات بأيادي المعاملات، التنازلات والأخذ في البال كافة الاعتبارات، سواء كانت واقعية أم ظرفية، إلاَّ أنَّ كلَّ هذه المحددات هي التي ترسم النمط العام الذي يسيِّرُ العامة، وبهذا يسير ماركيز وكافة القراصنة، عبر ما تم وضعه منذ سالف الأزمان، ليكونوا أحياء يقودهم الأموات – الأسلاف – بجدارة وفخر.

هناك مَن يدمن الشراب – المشروبات الروحية "الكحولية" – وهناك مَن يدمن المخدرات، المهلوسات أو الكافيين، لكن أستاذنا ماركيز قد أدمن التفكير، وهذا ما سبب له الكثير مِن التعقيدات له ولمَن هُم حوله، فهو بحكم حياته التي تدور كلها في الجنة ما وراء البحر، أين يسترسل القراصنة في جهلهم، معتبرين التفكير عارا وجريمة، خطأ وخطيئة، فإنَّ التفكير هو أخطر الذنوب التي قد تلتصق بأحد أفرادها، فما بال الفرد

الإنساني إن كان ماركيز – هذا القرصان المتمرد على كافة مبادئ القراصنة وتداعياتها – إنَّها حالة نتيجة لمقدمات كثيرة، أهمها منطق طرح السؤال، الجموح والتمسك بالطموح، وهي كلها تجتمع في النبلاء، كما تجتمع في الأستاذ ماركيز.

معروف على الأستاذ ماركيز مدى اشمئزازه مِن تصرفات القراصنة التي تعود منابعها إلى القرن الوسطى الأوربية، فرغم الإنكار الشديد الذي يحاول كل قرصان إثباته، إلاَّ أنَّ الخيانة، الكذب، القدرة التدميرية المفعَّلَة والغطرسة كلها صفات وتصرفات لم يعد لها حضور سافر في القرن الواحد والعشرين سوى على أرض الجنة ما وراء البحر، لقد اجتهدت كافة الثقافات – حتى الهمجية منها – والفلسفات – حتى المتشددة والمتطرفة منها – على تهذيب سلوكها العدواني/الأناني، إلاَّ سخافة/ثقافة القراصنة التي لا تزال تتمسك بمبدأ "البقاء للأقوى" بلا مواد تجميل لتخفي المضامين مقززة.

إنَّها بداية الخريف، يطل الأستاذ ماركيز مِن شرفة بيت أبيه، يشعل سيجارة، قبل أن يلقي بنظره إلى الطريق مباشرة، وإذ به يشاهد معركة بالأيدي والعصيّ بين مجموعتيْن مِن المراهقين، فعادت إلى ذهنه صور تلك المعارك الدموية التي كانت تدور بين القبائل والقوميات خلال فترة القرون الوسطى الأوربية، طبعا كانت الأسباب تافهة وقتها، حيث كان يكفي اختلاف فرديْن مِن السكارى في حانة حول الفتاة التي تسقيهما البيرة حتى يدخلان في شجار ينتهي بقتال بين قوميتيْن لسنوات تراق فيها الدماء بلا توقف.

لا يزال يشاهد الأستاذ ماركيز هذا المنطق على أرض الجنة ما وراء البحر، هناك تسيُّبٌ واضح، أين قانون – الهمج – قد صار هو السيِّد على الحياة العامة في بلاد القراصنة، وَقد يسأل أحدهم الأستاذ ماركيز عن دور أعوان زعيم القراصنة في حفظ السلام بين بقية الأتباع، وجواب ماركيز عن هذه القضايا واضح وبسيط: "زعيم القراصنة هو المستفيد الأوَّل مِن وضعية الحرب القومية التي تغرق فيها شوارع وأحياء الجنة ما وراء البحر"، إنها ثقافة العنف في محاولة استدعاء جلية لغريزة النجاة لدى البسطاء مِن القراصنة، فالقرصان حين تُحصر حياته ومتطلباتها في دائرة الغرائز الحيوانية قصد توفير رفاهية البقاء فقط، لن يجرؤ على التفكير في المبادئ الكلية/الأساسية للحياة الكريمة مثل: الحرية، العدالة والسعي خلف الحقيقة، هو انحدار مقصود ومدروس، هدفه إبقاء القطيع تحت السيطرة.

بعد مشاهدته لموجة الصراخ والصخب التي دارت في احدى شوارع أرض القراصنة، يعود ماركيز إلى غرفته بعد إلقائه بعقب السيجارة عبر الشرفة، يجلس وحيدا مستأنسا

بكتبه، يتمدد على سريره الواسع، فتقع عيونه على تلك الزخرفة العربية التي تزيِّنُ المصحف الكريم، ولشدة انبهاره بها وجد نفسه يفتح هذا الكتاب المقدس، محاولا لمس آخر خيوط الوصال بين السماء والأرض، أين تمَّ تلخيص الكون بجانبيْه الروحي والمادي بشكل متقن على لوحة رملية بعيدة لا تهدأ الرياح مِن حولها، لقد انبهر ماركيز بالقرآن انبهارا عظيما، وأشدُّ ما أثار عجبه وزاد مِن وتيرة تفكيره هي سورة يوسف – عليه السلام، وعلاقته بإخوته بشكل أساسيّ، فراح ماركيز يعيد قراءة هذه السورة لعله يعثر بين كلماتها على أمله التائه.

يشعُرُ الأستاذ ماركيز بهدوءٍ أكثر مِن اللازم، هدوءٌ مشابه لحد كبير لذلك الذي يسبق العواصف والأعاصير، أين يصبح الإنسان منخدعا بتلك الصورة المزيفة التي تجعله يشعر بالأمان قبل أن يأخذه الزمان على حين غرة، هي حالة تضاعف شعور الفزع عندما تحين ساعة الزلزال الروحي الذي قد يصيب الفرد دون سابق تبليغ. اعتاد ماركيز على العواصف على اختلافها، فعلى "أرض الجنة ما وراء البحر"؛ الأعاصير لا تهدأ رغم اعتدال الجو في تلك المنطقة مِن العالَم، لقد اعتاد على المشاكل منذ طفولته، فإن نجا مِن أزمة الطاقة، لم ينجُ مِن أزمات السكن والنقل، وإن فرَّ مِن أزمة التعليم لم يستطع الفرار مِن أزمة العمل/البطالة، وإن خطف ساعة نوم هادئ وجد نفسه محاصرا بالضجيج مِن كافة النواحي، هي حياة كَتبها الأشرار على الأخيار فوق أرض القراصنة، حتى صار الكثير منهم يعتبرها عادية لطول مدتها؛ بل إنَّ الكثير مِن القراصنة لم يعرفوا غير هذه المشقات حتى صاروا يعتقدون بأنَّها هي صعوبات الحياة بشكل عام.

مِن أجمل هدايا الحياة أنها تسير وفق وحدات، صحيح أنَّ كلَّ وحدة متصلة بالأخرى، وهي متأثرة بها بشكل مباشر، لكنها وبالمقابل تحمل بين تفاصيلها فتات القطيعة التي يمكن تطبيقها على لحظة معينة بقرار حاسِم، وبهذا المضمون، يتمكن الفرد بجرَّة قسوة مِن حِبر الشجاعة، أن يتقدَّم في حياته، دافعا ثمن هذا الانتقال روحيا قبل أن يدفعه مِن جهده وطاقته فيما بعد. الآن نجد الأستاذ ماركيز وَاقِفًا على جسر الشجاعة، وهو مدرك تمام الإدراك لما عليه القيام به، مسجلا تكاليف خطوته التالية على دفتر روحه، تشتعل نار تمرده في عقله المستتر، وحاملا للمجهول الذي سيقف في مواجهته دون تردد كما هي عادته بين ستائر ضميره، إنَّها اللحظة الحاسمة، تلك التي جعلت "محمد الغزالي" يصفها بلحظة "التحوُّل" وجعلت الكبير شكسبير يصفها بـ: "أكون أو لا أكون"، ودفعت سقراط للقول: "اعرف نفسك بنفسك"، كما حتَّمت على ديكارت التصريح بها قائلا: "أنا أفكر، إذن أنا موجود".

لم يجد ماركيز رفيقا يحكي له همومه وما يجول في خاطره ويكون موثوقا فيه كما وجد سجائره، هو لا يدخن حبا في التدخين، بل لأنه مدرك بأنَّ السيجارة تملك حواس السَّمع والزوال، تسمع ما يدور في خلد المدخِّن قبل أن تحترق وتزول، لا تعيش مدَّة أطول لتحكي لغير مدخنها ما أسر به مدخنُها نفسه، لهذا وجد الأستاذ ماركيز أنسه وراحته في تدخينه لتلك السيجارة، في كلِّ الأوقات وتحت كلِّ الظروف. أن تفقد الثقة، أن تحمل الأمل وأنتَ تعرف قبل غيرك بأنَّك تستطيع، هذه معادلة مرهقة لقرصان يعيش حياة البؤس والشقاء على أرضٍ لا تعترف سوى بالجبناء، ملقية بأبناء النبلاء على قارعة الطرقات، إنَّها تراجيديا بلا حدود ولا نهايات، قَدَرٌ يتم تداوله محاولين إقناع ماركيز ومشتقاته بأنَّ العبيد يولدون كذلك، لكن! وما تؤكده كافة الشرائع والتشريعات، وما تدلُّ عليه الطبيعة ذاتها هو أنَّ الحرية هي أساس الحياة، وهي الهبة الوحيدة التي يرثها الإنسان لمجرَّد كونه إنسان.

وُجِدَ القتال لأجل انتزاع الحقوق والدفاع عنها، واكتسابها لن يكون إلاَّ بدفع الثَّمن عندما يكون القرصان مِثل الأستاذ ماركيز يعيش على أرض تستقي مشروعية ومبررات وجودها مِن الظلم والظالمين، لهذا ما هو عادي وبسيط ولا يحتاج إلى كثيرٍ مِن الجهد للتخمين، هو أنَّ ماركيز – حفيد النبلاء – لن يستسلم! لقد خاض عبر العصور الإنسان الصراع لأجل ضمان بقائه، نجاته وصيانة حياته، ولا يمكن بحُكم سريان التاريخ والطبيعة أن يكون الأستاذ ماركيز استثناءً عن هذه القاعدة، هي طبول الحرب تُدق، ولكنَّ القليل منا يتمكن مِن سماعها.

يدخِّنُ الأستاذ ماركيز سيجارة كعادته وهو يشاهد شريطا مسجَّلاً على موقع "يوتيوب"، موضوعه يدور حول فتيات القراصنة اللائي يفقدن بعولتهنَّ لأيِّ سبب مِن الأسباب، غالبا ما تكون هذه الأسباب إمَّا الطَّلاق، الخُلع أو الهجران؛ أعجبه هذا الموضوع لما له مِن اتصال وثيق بالواقع الذي يدور القراصنة في فلكه على كافة المستويات والمضامين، فراح يتابعه بإسهابٍ وتركيزٍ منقطعَا النظير.

على أرض "الجنة ما وراء البحر"، تعيش الأنثى سجينةً بين جدران زنزاناتها الروحية منذ ولادتها، إذْ مِن يومها الأوَّل في هذه الحياة، تتمُّ مقابلتها بطقوسٍ تفرِّق بينها وبين ذكر القراصنة، وشيئا فشيئا بمرور الأيَّام، تعتمد هذه المخلوقات – الإناث على الذكر في كافة تعاملاتها اليومية، سواء كان أبا أو أخا، أو حتى أحد الأقربين مِن كفلائها في حالات غياب أصولها لأيِّ سبب مِن الأسباب، فتلقَّن العبودية والاتكال على الذكر/القرصان منذ نعومة أظافرها وصولا إلى رحيلها عن هذه الحياة.

أثناء مراهقة القرصانة تبدأ في اكتشاف ما يحيط بها مِن قراصنة "غرباء عنها" بقوة التقاليد المثقوبة والعادات البالية، وبعدما تكتشف حاجتها إلى مَن يشبع غرائزها الأنثوية، تلجأ إلى التأرجح بين جحيم الشهوة ونار السلاسل التقليدية التي ضربت عليها منذ الطفولة تحت عنوان "شرف العائلة"، وهنا أخذ الأستاذ ماركيز نَفَسًا عميقا قبل أن يتساءل: أيُّ قومٍ هؤلاء، الذين يربطون شرف عائلاتهم بفروج النِّساء؟

بعدها تلجأ أنثى/القرصان خلال فترة شبابها إلى أحد الحلول التي تتاح لها لقضاء حاجاتها الجنسية/البيولوجية وإسكات ما بين ساقيْها، ألا وهي: الانعزال ومشاهدة الشرائط الجنسية عبر الانترنت مع مداعبة أعضائها الحميمية بعيدا عن الأعين مِن حولها، أو البحث عن فتاة تتخذها صديقة مقرَّبة منها لأجل تمتع كلٌّ واحِدة بالأخرى عند الحاجة في الخفاء، أو اللجوء إلى اتخاذ "حبيب" في السر تتخذه ناكحا لها عبر قناة الشرج فقط، حتى تحافظ على غشاء بكارتها سليما مِن أجل سمعة "عائلتها" ولتسد اتهامات عريسها المستقبلي.

وإن كانت محظوظة، ستتزوَّج أنثى/القرصان أحد القراصنة مِن اختيار عائلتها طبعا، لتجد نفسها أمام حيوانٍ شره لممارسة الجنس معها بكافة الوسائل ومتى يشاء، خاصة وأنَّ القرصان الذكر لا يفرغ طاقته الجنسية بشكل سليم التي تبدأ في التكوُّن لديه منذ المراهقة وصولا إلى موعد الزواج الذي عادة ما يتأخر كثيرا، وهنا تقع المشكلة، هي تراه أحد العاجزين عن اشباع جوعها الجنسي بينما هو سيراها مرحاضا بشريا كثير الانسداد في وجه ثعبانه العضوي، بحيث نجد الكثير مِن إناث القراصنة بعد الزواج يستعملن أعضاءهن الحميمية للمساومة وابتزاز أزواجهن، طبعا مِن أجل إحكام سيطرتهن الديكتاتورية على أسرهنَّ وبالخصوص مداخل أزواجهن المادية بطرائق أقرب إلى تلك التي تستعملها العاهرات على قارعة الطرقات، وهذه أولى قطرات الشقاق بين الثنائيات على أرض القراصنة.

سبب فراق الأزواج في الجنة ما وراء البحر هو سبب بيولوجي محض، سيشعر الذكر بالإهانة يوما ما أمام ابتزاز أنثاه له، وعليه، سيحمل قضيبه ويرحل نحو وجهة جنسية أخرى، وهي أيضا ستفعل الشيء نفسه أمام ضعفه الجنسي الناتج عن ذلك الشرخ العميق في نفسيته وَالذي تكوَّن نتيجة الضغوطات النفسية التي تنهال عليه مِن كافة الاتجاهات.

اكتملت مشاهدة الأستاذ ماركيز لذلك الشريط المفعم بالحقائق، وراح يفكِّر في احدى قريباته الأرامل، تلك التي فقدت زوجها إثر حادث سير أليم، مخلفا لها راتبه الشهري،

طفلا من صلبه ومسكنا انفراديا، وبمرور السنين بعد هذه الحادثة، ها هي اليوم تعود إلى بدأ رحلتها الشاقة في البحث عن قضيب يسد مدخل ساقيْها عندما تحتاج إليه، وأمام مسعاها هذا هي تستعمل كافة الوسائل المتاحة، مِن مكر، عهر وحتى تعاليم الديانات، لقاء أن تجد نذلا من أنذال القراصنة لمشاركتها تأوهات السرير ومداعبة حلماتها تلذذا بالشبق بطريقة لن تجدها إلاَّ على أرض ليست للنبلاء في شيء.

أن تعيش على أرض الجنة ما وراء البحر، فأنت تحت طائلة الاتهامات المختلفة حتى تثبِتَ براءتك أو تقضيَ بقية أيامِكَ مطاردا في الفلوات، أن تقدم على جريمة التفكير فقد حكمتَ على نفسك بالإعدام المعنوي كلَّ يوم، أن تقول كلمة: لا؛ فقد وصلت إلى نقطة اللا-عودة في عداوة القراصنة، أن تحاول التخطيط لحياتك وتنفيذ ما وضعته مِن خطط، فأنتَ كَمَن يطلب النجاة مِن فم الضرغام، أن تكتب، فتلك عملية لا يقوم بها سوى المغامرين الذين يبحثون عن زنزاناتهم الفردية، أن تدرس الفلسفة، فأنتَ تعشق الثرثرة لا محالة، أن تكون معلِّمًا، هذا يعني أنَّك في قلب المجتمع وقالب الفقير، أن تتمرَّد على عادات القراصنة البالية وتقاليدهم المثقوبة، فأنتَ بلا شك مجنون حتى النخاع، وأن تقوم بكل ما سبق دفعة واحدة وعلى مدى سنوات، فأنت حفيد الثوار، ماكيزار بالفطرة وعُملة نادرة لا تتكرر كل حين في كلِّ زمن.

أخذ الأستاذ ماركيز حمَّامًا ساخنا، وتحت ضجيج البنَّاء الذي أتى به أبوه إلى منزلهم، راح يتقدَّم بخطوات متثاقلة نحو غرفته ذات النافذة المطلة على السلالم، جلس على سريره الواسع المزيَّن بزخرفات تقليدية على الطريقة الرومانية القديمة، فانغمس في تأمُّل صورته التي انعكست على مرآة الخزانة الخشبية ذات الطراز الكلاسيكي، أخذ يبحث بعدها عن سيجارته التي أشعلها بمجرَّد أن وصلت أنامله إليها، ثمَّ عاد للتأمُّل مِن جديدٍ، مرَّت أمام ناظره وقتئذ صور مختلفة مِن ماضيه، مواقف متنوعة جالت في ذهنه، عاد إلى مراجعة نفسه، بينما كان دخان السيجارة يفعل فعله في صدره، لينتزع منه سعالا حادا، ذلك الذي قطع فترة راحته لوهلة ليست بالطويلة.

يعتمد الأستاذ ماركيز على ما يصل عقله بشكل كامل وحتمي، وصفه بعض الجهلة بأنَّه متعصب للعقل، والبعض الآخر مِن القراصنة يرون فيه سذاجة تفوق الخيال، بينما أطراف مِن العائلة يسمونه بالمتخلِّف (Mghandèf)، وهي كلُّها أوصاف تُطلَقُ على النبلاء الذين يرسمون أيامهم بريشاتهم الخاصة على أرض تعاقب هؤلاء بقسوة، لأنها ترى فيهم أتباع ذلك المتحرر مِن نزلاء كهف أفلاطون؛ لأنَّ الجنة ما وراء البحر ليست نعيما للأحرار الأبرار مهما كانت مشاربهم وتوجهاتهم.

لا يعيش الإنسان سوى حياة واحِدة قبل الرَّحيل النهائي عن هذا العالَم، فكيف يقضيه في استنساخ حيوات الآخرين، ومحاولة مطابقتها مع أيامه؟

هذا ما جعل الأستاذ ماركيز ينهي سيجارته بسرعة، بعدها ارتدى بذلة أنيقة رمادية اللون، تتوسطها ربطة عنق حمراء، وضع قبعة ذهبية اللون على رأسه مزينة بشريط أحمر أيضا، حمل حقيبته أو حقائبه – لا أدري، وخرج مِن بيت – أبيه نحو المجهول، فهو لا يزال يحلم ببعض ما يعتبره القراصنة جنونا، دهشة، خروجا عن تعاليم الكنيسة وحتى تمردا على الطريق السليم الذي يقود القرصان نحو الغرق في رفاهية الاعتداء على حرمات الإنسانية بلا مبالاة.

يرغب ماركيز بأن يطيل شَعر رأسه حتى يصل أسفل كتفيْه، قبل أن يسرِّحه على طريقة اللاعب السويدي زلاتان إبرهموفتش، يرغب بتدخين سيجار رهيب وارتداء بذلة تزينها ربطة عنق الفراشة، وهو جالس إلى طاولة عليها زجاجة ويسكي فاخرة، حيث يستطيع أن يرتشف منها ما أراد وقتما يشاء، أن يرسُم على جسمه الوشم الذي يراه مناسبا وأن يرقص تحت المطر كلَّ شتاء، وقبل هذا وذاك، هو يرغب في زواج بسيط بلا حفلات، ليؤسس بيتا بلا تدخلات مِن أحد، أو مراقبة مِن أولئك الذين يكنون المحبة له منذ سنين.

بعد ركوب الأستاذ ماركيز سيارته الفرنسية الصنع، تجرَّد مِن كلمة أستاذ، نظر إلى المرآة العاكسة للسيارة وقطع على نفسه عهدا بتحقيق ما يدور في خياله، أدار المحرِّك، ثمَّ انطلق بسرعة جنونية جعلته يتبخَّر، يَنسى العائلة التي أرادت تزويجه بإحدى إناث القراصنة، فدفعته هذه الخطوة نحو قطع أذرع أخطبوط الأسرة الصغيرة التي لطالما خنقت أمانيه إرضاء للذي لا يرضى، لتتركه ذئبا عاريا مِن كلِّ شيء على أرض قارسة البرودة، بعدها تمَّ محو وجوده مِن ذاكرة كلِّ مَن عرفه مِن القراصنة دون استثناء، ليزول، لينتهي نحو العَدَم، مطبِّقًا ما قاله أحد شعراء بيت المقدس: تُنسى وكأنَّك لم تَكن.

الدكتور مزوار محمد سعيد

El Dotor Mezouar Mohammed Saïd, fiol de Tlemcen nato ne l'anno 1988, filosofo, autor e maestro de l'arte de insegnar, che al presente demora in Birmingan, è cognossudo per le soe fadighe in la fenomenologia, ne la disciplina de l'insegnar, e ne le cose de la cultura de Algeria. Tra le soe ovre se conta *Hunting: In DZ-Coliseum*. El dà soa opera a le dispute

dute in le academia sovra le cosse de l'identitade, de la memoria e de la filosofia.